٤ ـ شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

— ٤ —

ويجب أن نضيف إلى تلك الأدلة على أن حب أبي العتاهية لعتبة جارية المهدي لم يكن حباً صادقاً ، دليلاً آخر هو ذلك الشكل الذي ابتدأ به حبه لها ، وحب صاحبه لخالصة صاحبتها ، فان وقوف كل واحد منهما في الطريق لتمر عليه أي امرأة كانت ، فيتفق أن تمر عليهما هاتان الجاريتان ، فيقول أحدهما قد عشقت عتبة ، ويقول الآخر قد عشقت خالصة ، لايدل إلا على أنهما كانا يريدان حباً كيفما اتفق ، حباً يتخذانه وسيلة للظهور والمران على الشعر ، لاحباً صادقاً علك عليهما حياتهما وشعريهما ، كما ملك ذلك على الشعراء العشاق قبلهما

ولم يكتف أبو العتاهية باتخاذ عتبة وسيلة له إلى الاتصال بالمهدي ، بل اتصل أيضاً بيزيد بن منصور خال المهدي ، وكان من أكرم الناس ، وأحفظهم لحرمة ، وأرعاهم لعهد ، وكان باراً بأبي العتاهية ، كثيراً فضله عليه ، وكان أبو العتاهية منه في منعة وحصن حصين ، مع كثرة ما يدفعه اليه ، ويمنعه منه من المكاره ، ومن أجله كان أبو العتاهية يتعصب لليمانية أخوال المهدي ، ويمدحهم فيما يمدحه به من شعره ، ومن ذلك قوله :

سُقيتَ الغيثَ يا قصر السلام فنعم محلّةُ الملك الهمام

لقد نشر الإله عليك نوراً وحفّتك بالملائكة الكرام

سأشكر نعمة المهديّ حتى تدور عليّ دائرة الحِمام

له بيتان ، بيتٌ تُبّعيّ وبيتٌ حلّ بالبلد الحرام

وقد اتصلت مدائحه بالمهدي فقربه منه ، وعظم مقامه في دولته ، ونال من جوائزه مالم ينله غيره ، وكان الأمر يصل بينهما أحياناً إلى التبسط في أوقات اللهو إلى حد تسقط فيه الكلفة ، وينسى الفارق الكبير بين المهدي وبينه ، ومن ذلك أنه خرج معه يوماً إلى الصيد في بعض من حاشيته ، فوقعوا منه على شيء كثير ، وتفرقوا في طلبه ، وأخذ المهدي في طريق غير طريقهم وكان معه أبو العتاهية ، فعرض لهم واد فسيح ، وتغيمت السماء وبدأت تمطر ، فتحيرا في أمرهما ، وأشرفا على الوادي ، فاذا فيه ملاح يعبر الناس ، فلجآ اليه وسألاه عن الطريق ، فجعل يضعف رأيهما ، ويعجزهما في بذلهما أنفسهما في ذلك الغيم للصيد ؛ ثم أدخلهما كوخاً له ، وكاد المهدي يموت برداً ، فقال له الملاح : أغطيك بجبتي هذه الصوف ؟ قال : نعم ، فغطاه بها فتماسك قليلاً ونام ، فافتقده غلمانه ، وتبعوا أثره حتى أتوا اليه ، فلما رأى الملاح كثرتهم علم أنه الخليفة فهرب ، وتبادر الغلمان فنحوا الجبة عنه ، وألقوا عليه الخز والوشي ، فلما انتبه قال لأبي العتاهية : ويحك ما فعل الملاح فقد والله وجب حقه علينا ، فقال : هرب والله خوفاً من قبح ما خاطبنا به ، فقال إنا لله ، والله لقد أردت أن أغنيه ، وبأي شيء خاطبنا ؟ نحن والله مستحقون لأقبح مما خاطبنا به ، بحياتي عليك إلا ما هجوتني ، فقال : يا أمير المؤمنين كيف تطيب نفسي بأن أهجوك ، فقال : والله لتفعلن فاني ضعيف الرأي مغرم بالصيد . فقال :

يا لابس الوشي على ثوبه ما أقبح الأشيب في الراح

فقال له زدني بحياتي فقال :

لو شئتَ أيضاً جُلتَ في خامة وفي وشاحين وأوضاح

فقال له : ويلك هذا معنى سوء يرويه عنك الناس وأنا أستأهل ، زدني شيئاً آخر . فقال : أخاف أن تغضب ، فقال لا والله ، فقال :

كم من عظيم القدر في نفسه قد نام في جُبةِ ملاّح

وهذه حادثة أخرى له مع المهدي تدلنا على أن اتصاله به لم يكن اتصال الشاعر المستجدي الخانع ، بل اتصال الشاعر الذي يعرف لنفسه قدرها ، فاذا رأى شيئاً أمامه من ممدوحه لا يرضى عنه ، نسي فيه ماله وجوائزه ، ولم يذهب فيه معه على ما يرضى هواه ، بل يذهب فيه على ما يرضى نفسه هو ، وإن كان يتلطف في ذلك بقدر ما تسمح به ظروف عصره في مخاطبة الملوك ، وتهدئة ثائرتهم عند غضبهم

دخل على المهدي وزيره أبو عبيد الله ، وكان قد وجد عليه في أمر بلغه عنه ، وأبو العتاهية حاضر مجلسه ، فجعل المهدي يشتم أبا عبيد الله ويتغيظ عليه ، ثم أمر به فجر برجله وحبس ، ثم أطرق المهدي طويلا فلما سكن أنشده أبو العتاهية :

أرى الدنيا لمن هى فى يديه عذاباً كلما كبرت عليه
تهين المكرمين لها بصُغر وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شئ فدعه وخذ ما أنت محتاج إليه

فتبسم المهدى وقال لأبى العتاهية : أحسنت ، فقام أبو العتاهية ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ما رأيت أحداً أشد إكراماً للدنيا ، ولا أصون لها ، ولا أشح عليها ، من هذا الذى جر برجله الساعة ؛ ولقد دخلت إلى أمير المؤمنين ، ودخل هو ، وهو أعز الناس ، فما برحت حتى رأيته أذل الناس ، ولو رضى من الدنيا بما يكفيه لاستوت أحواله ولم تتفاوت . فتبسم المهدى ودعا بأبى عبيد الله فرضى عنه ، فكان أبو عبيد الله يشكر ذلك لأبى العتاهية

فاذا قيل لنا كيف صار الفتى بائع الجرار إلى هذه المنزلة من علو النفس ، بحيث يسمو ذلك السمو على وزير المهدى ، وإذا بدا للناظر غريباً أن ينقلب هذا الشاعر الماجن ذلك الانقلاب الذى يتنافى مع ماضيه كل المنافاة ، فان هذا لا يجعلنا نتعجل درس هذا الشاعر العظيم ، ولا بد أن ننتظر ذلك الارهاص إلى غايته ، ونمضى فى درسه مرحلة مرحلة

ومن مدائحه فى المهدى تلك القصيدة التى مدحه بها أمام بشار وأشجع السُّلَمىّ وغيرهما من الشعراء ، وقد أذن لهم المهدى فجلسوا وسكت أهل المجلس ، فسمع بشار حساً ، فقال لأشجع : من هذا ؟ فقال أبو العتاهية ، فقال : لاجزى الله خيراً من جمعنا معه ، ثم أمره المهدى فأنشد :

ألا ما لسيدتى مالها أدَلاً فأحمل إدلالها
وإلا ففيمَ تجنّتْ وما جنيْتُ سوى الله أطلالها
ألا إن جارية للأما م قد أسكن الحبُّ سربالها
مشت بين حورٍ قصار الخطى تجاذب فى المشى أكفالها
وقد أتعب الله نفسى بها وأتعب باللوم عذّالها

فقال بشار لأشجع : ويحك يا أخا سليم ! رأيت أحرّ من هذا ؟ ينشد مثل هذا الشعر فى هذا الموضع ! حتى بلغ قوله :

أتته الخلافة منقادة إليه تجرّر أذيالها
ولم تك تصلح الاّ له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بناتُ القلو ب لما قبل الله أعمالها

فقال بشار : أنظر ويحك يا أشجع ، هل طار الخليفة عن فراشه طرباً لما يأتى به هذا الكوفى ؟

والناظر فى هذه القصيدة يرى أبا العتاهية إلى هذا العهد يبتدىء مدائحه بالنسيب على عادتهم فى ذلك ، ولكنه لا ينسب بليلى ولا هند كما كان ينسب الشعراء قبله ، وإنما ينسب بالجوارى البغداديات الحسان ، ليجارى فى ذلك عصره الذى يعيش فيه ، ولا يجمد على ما كان يجمد عليه غيره ، ولم يكن مع هذا يمنى بتطويل النسيب أمام المديح حتى يستفرغ فيه وسعه ، بل يلم به إلماماً ، ثم يدخل فى مقصده . قال صاحب الأغانى حدثنا الصولى ، قال حدثنا الفلابى ، قال حدثنا عبد الله بن الضحاك أن عمرو بن العلاء مولى عمرو بن حريث صاحب المهدى كان ممدحاً ، فمدحه أبو العتاهية ، فأمر له بسبعين ألف درهم ، فأنكر ذلك بعض الشعراء وقال : كيف فعل هذا بهذا الكوفى ! وأى شىء مقدار شعره ؟ فبلغه ذلك ، فأحضر الرجل وقال له : والله إن الواحد منكم ليدور على المعنى فلا يصيبه ، ويتعاطاه فلا يحسنه ، حتى يشبب بخمسين بيتاً ، ثم يمدحنا ببعضها ، وهذا كأن المعانى تجمع له ، مدحنى فقصر التشبيب وقال :

إنى أمنت من الزمان وريبه لما علقت من الأمير حبالاً
لو يستطيع الناس من إجلاله لحذوا له حرّ الوجوه نعالاً

عبد المتعال الصعيدى

صدر كتاب :

الأطلال

رواية قصصية تأليف محمود تيمور

يطلب من جميع مكاتب مصر الشهيرة وثمنه :

خمسة قروش مصرية

اطلبوا أيضاً

أبو علي عامل أرتست

مجموعة قصص للمؤلف